الزيت والزعتر «سندويشتي» المفضلة

إنعام أبو حلوة

في اليوم الأوّل من سنتي الدراسيّة الأولى؛ كنتُ أوّل الواصلين إلى الصفّ؛ كنت طالبةً نشيطة، وأتشوّق للذهاب إلى المدرسة، أحمل وجبتي المفضلة: «سندويشة زيت وزعتر»، إلى صفّنا البعيد عن بقيّة الصفوف، لأنّه كان صفّاً مميزاً.

أتذكّر معلّمتي حينها؛ كانت «حبّوبة» ولطيفة في التعامل معنا، كانت تعجبني ملابسها، وأتذكّر أنّ طالبات الصفوف الأكبر منّا كنّ يزرنها دائماً.

أمّا في الصف الثاني، فكانت المعلّمة «شديدة»، وبخاصّة في تعاملها مع الطالبات، وصوتها غليظ، ما انعكس عليهنّ، فكنّ يخفن منها ولا يجدنَ أيّ رابطٍ أو تواصلٍ معها.

وفي الصفّ الثالث ضربتنا المعلّمة؛ كانت تدخل إلى الصفّ تحمل العصا بيدها، ولم تستطع بعضُ الطالبات أن ينطقن أمامها بحرفٍ واحد، كانت تخيفني، مع أنّها لم تضربني ولو مرّة واحدة، فكنتُ أحرص على إنجاز واجباتي المدرسيّة على أكمل وجه.

المعلمة إنعام أبو حلوة مع طلابها في نشاط لا منهجي.

ما تبّقى من أيّامي في المدرسة كان جميلاً، شكّلنا أنا وصديقاتي «شلّة»، وكنّا مجموعة نضحك معاً ونفهم بعضنا جيّداً، وعدا عن ذلك؛ لا شيء مميّز يستحقّ الذكر، إلى أن انتقلتُ إلى مدرسةٍ بعيدة في المرحلة الثانويّة، والتقيتُ بمعلّمةٍ تبدو وكأنّها «تكره» الطالبات، وهي دائمة التوبيخ لنا، ولكنّي اكتشفتُ لاحقاً أنّ ذلك مجرّد قناعٍ تلبسه لتثبت أنّها «قويّة» أمامنا، وذلك حين مررتُ بموقفٍ صعبٍ ووجدتها بجانبي لتساعدني؛ هي معلّمة رائعة يحمل قلبها كلّ معاني الحبّ.

إذا كانت المعلّمة جيّدة، سيحبّ طلبتها الدراسة والمدرسة، حتى لو اضطرّت لتأنيبهم أحياناً، لأنّهم سيعلمون أنّها تفعل ذلك بدافع الحبّ، بينما تربكهم المعلّمة القاسية، وتشوّش فهمهم، وقد تؤثّر على سير حياتهم؛ لذا فإنّ كلّ المواقف التي مررتُ بها كطالبة ساعدتني في حياتي العمليّة، وفي تعاملي مع طلبتي، لأنّني أيقنتُ أنّ كلّ شيء سيبقى عالقاً في ذاكرتهم.

بعد الحصول على شهادة الثانويّة العامّة «التوجيهي»، التحقتُ ببرنامج دبلوم مكثّف في تخصص السكرتاريا، استمرّ عاماً كاملاً، وكوّنت صداقاتٍ جميلةً خلاله، وكانت صديقاتي من مناطق مختلفة، ثمّ التحقتُ معهنّ بتدريبٍ في جامعةٍ معروفة، حيث عمّقتُ حبّي للعمل.

ولكنّي واجهتُ تحدياً بالاستمرار في وظيفتي والتقدّم فيها، بسبب عدم حصولي على شهادةٍ جامعيّة، وخسرتُ عملي في النهاية، ما جعل الشهادة الجامعيّة هدفاً وتحدّياً قررتُ خوضه - يجب أن أحصل على شهادة!

المعلمة إنعام أبو حلوة داخل الصف مع طلابها يقومون بتنفيذ نشاط لا منهجي.

التحقتُ بالجامعة، واخترت -بعد تردّد- تخصّص التربية الابتدائيّة، ولكنّي لم أندم، أعجبتني فترة الدراسة الجامعيّة جداً، باستثناء خسارتي لأعزّ إنسانٍ؛ ففقدان أبي لم يكن بالحسبان.

يقف الكلام عند الحديثِ عن أبي، لكنّي لم أتوقّف عن السعي عند شهادتي الجامعيّة، وتلقّيتُ تدريباً لمدّة أربعةِ شهورٍ في روضة العودة، حظيت خلالها بدعم كبيرٍ من مديرة الروضة، ومنحتني فرصةً للتعامل مع الطلبة، وولّدت لديّ أفكاراً كثيرة.

اليوم الأوّل ثانيةً

ساعدني كلّ الدعم الذي تلقيته ليكون يومي الأوّل كمعلّمة موفّقاً، كانت نظرات الطلبة تحمل شوقاً يشبه شوقي للمدرسة حين كنت في عمرهم، تعرّفتُ عليهم جميعاً، إلّا أنّ طالباً واحداً أظهرَ جرأة غير اعتياديّة، ودقّق في تفاصيل شكلي، وسألني: «أنتِ ليش لابسة بنطلون جينز؟»، سألته باستغراب: «ليش بتسأل؟»، فقال:«المعلّمة لازم تلبس فستان طويل».

شعرتُ بأنّ ذلك الطالب بالذات لن يكون سهلاً؛ «رح يغلبني»، لكنّي قرّرتُ أن أعامله بلطف، وأن أتقرّب منه لتنشأ صداقةٌ بيننا، وهذا بالفعل ما حدث، لجأ لي حين احتاج شخصاً يحادثه، وشاركني تفاصيل من حياته، وقال لي مرّة: «أنا بدي أطلع من المدرسة لمّا أتخرج من عندك ... إلّا إذا بتعلميني بالصفّ إللي بعده!»، وصادفته في السنة التي تليها، وكان سعيداً برؤيتي وقال: «يا الله يا مسّ، شو كنت أحبّك».

أنا لم أرغب يوماً في أن أصبح معلّمة، الفكرة كانت مستبعدة إثر كلّ ما مررتُ به في المدرسة مع معلّماتي، لكن قادتني صعوبة الحصول على وظيفةٍ إداريّة إلى الصفوف المدرسيّة، إلى أن جعلتني بعض المواقف التي مررتُ بها أحبّ عملي، أحبّ كلّ سنةٍ فيه، وأحبّ أن أتعرّف إلى طلبةٍ جُدد كلّ مرّة.

من المواقف الصعبة، حين غادر طالبٌ هادئ ومؤدّب وذكيّ صفّي، بغير إرادته، فأراد والداه نقله إلى صفّ معلّمةٍ أخرى

يعرفانها جيّداً، ولم يتركا له خياراً ولا أعطياني فرصة، جاءت أمّه إلى الصفّ وقالت: «يلا لازم تنتقل، هديك معلّمتك، مش هون»، فأُحرجَ وخجل وبكى، لم يقل شيئاً، لكنّه ذرف دموعاً قهرتني.

أتذكّر طالباً آخر حذّرني منه الجميع، ومن أنّه يعاني فرطاً في الحركة: «ما رح تقدري تشرحي وهو موجود، متعّبنا ومتعّب أهله»؛ لكنّي أحببته، ولم أعاقبه ولا مرّة، واستمعتُ له ولقصصه دائماً، وفي يوم من الأيّام احتجتُ أن يعدّ أحد الطلبة بحثاً صغيراً عن توماس أديسون، فاخترته هو من بين كلّ الطلبة.

جاء في اليوم التالي إلى المدرسة برفقة والده، والسرور بادٍ على وجهه، لدرجةِ أنّ أباه سألني:» شو عملتِ بمحمد؟ من أوّل ما روّح على البيت وهو يقرأ عن أديسون وحفظ كلّ كلمة كتبها»، فسألت محمداً: «بتقدر تحكيلي عن هالعالِم بدون ما تقرأ من الورقة؟».

المعلمة إنعام أبو حلوة مع طلابها يقومون في نشاط لا منهجي.

كان «طاير من الفرحة»، أخبرني كلّ ما يعرفه عن العالِم وكأنّه هو نفسه توماس أديسون أمامي، شعرتُ حينها بقيمة كلّ كلمة وكلّ تشجيع -مهما كان صغيراً- أقدّمه للطلبة، إنّه شعورٌ رائع بالحبّ اتجاههم، هم الذين قالت لي إحداهم مرّة: «بحسّ إنّك مثل إمّي».

الحبّ والحنان هما ما ينجح، يجبُ أن أكون دائماً عند حُسن ظنّ الطلبة، وأستمع لهم وأدخل لقلوبهم، فالقسوة قد تؤذيهم وتؤثر على حيواتهم في المستقبل.

ذهبنا إلى مدينةِ الملاهي في رحلة مدرسيّة، وركبتُ لعبةَ «الدولاب»، وحين كنتُ أدورُ عالياً، كانت طالبتي تلوّح لي في الأسفل، وحين انتهت اللعبة ونزلت، ركضت -أو طارت- باتجاهي، وحضنتني، وسألني حينها العاملُ في الملاهي: «شو بتقربلك؟».

- طالبتي، أنا معلّمتها.

- أوّل مرّة بشوف طالبة بتخاف على معلّمتها هالقد.

وبعد عام، قالت لي هذه الطالبة باكية، بعد أن جعلتني أعدها أنّني لن أَنزعج من حديثها: «أنا مش حابّة المدرسة إلّا عشانك، مش حابّة أضلّ ولا بصفّ إلا عندك، وبما إنه بنفعش، رح أغيّر المدرسة»؛ وبالفعل انتقلت إلى مدرسةٍ أخرى، وما زالت تزورني دائماً وتحضنني: «أنتِ قلبك كبير يا مس».

قضيتُ تسع سنواتٍ في مهنةِ التدريس، ولن أنسى أيّاً من تلك المواقف، ولا أيّ مرّة حضنتُ فيها طالباً أو طالبة، وشاركوا معي طعامهم، حتى لو كان بالكاد يكفيهم، ولا أيّ لعبةٍ لعبناها معاً بفرح.

التحقتُ بدورات عدّة في علم النفس، وأطمح للحصول على وظيفةٍ مستقرّة في التعليم في القطاع العام، ولديّ رغبةٌ في استكمال دراساتي العليا والالتحاق ببرنامج ماجستير ... أنا أحبّ عملي، وأحبّ كلّ سنةٍ فيه.

مدرسة العودة الأساسيّة المختلطة/العيزريّة